ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

رحلة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في مطلع القرن العاشر الهجري/السّادس عشر الميلادي

The Travel of the Italian Ludovico Di Varthema as a Source of the Hedjaz History in the Beginnings of the 10th c H / 16th c J. C

د. جمال عبدولي صص121- 150

Jamel Abdouli

المعهد التّحضيري للدّراسات الأدبيّة والعلوم الإنسانيّة

- جامعة تونس

abdoulijamel@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال:2019/03/25، تاريخ المراجعة:2019/04/01، تاريخ القبول:2019/04/10.

ملخّص: تسعى هذه الدّراسة إلى رصد الصّورة التّاريخيّة لبلاد الحجاز في مطلع القرن العاشر الهجري/السّادس عشر الميلادي في ضوء ما أورده عنها الإيطالي لودو فيكو دي فارتيما في رحلته، التي غشيت أغلب بلدان المشرق الإسلامي وكان من أبرز أهدافها زيارة الحرمين الشّريفين والاطّلاع عن كثب على ما تحويه هذه المنطقة المقدّسة من رموز دينيّة وشواهد تاريخيّة. ومن أهمّ ما حوته رحلة دي فارتيما عن بلاد الحجاز خلال المرحلة التّاريخيّة المشار إليها تسليطها الضّوء على كثير من الخصائص الجغرافيّة والعمرانيّة لهذا الإقليم حيث قدّمت لنا وصفا دقيقا للعديد من المسالك والمدن الحجازيّة بما حوته من معالم ومواقع، فضلا عمّا أورده هذا الرحّالة كشاهد عيان من أخبار قيّمة ونادرة أحيانا عن مظاهر الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة السّائدة بمختلف أرجاء بلاد الحجاز.

الكلمات المفاتيح: رحلة؛ دي فارتيما؛ مصدر؛ تاريخ؛ حجاز.

Abstract: *This study proposes to examine the historical image of the region of Hedjaz in the beginnings of the 10th c H / 16th c J. C through the Italian Ludovico Di Varthema's travel which browsed the most countries of the Muslim East. In his travel which the main aims was to visit the Muslim Holy Land in Arabia, Di Varthema provided a detailed description of many Hedjaz routes and cities with their sites and monuments. In addition, this traveler recalled precious and rare information about the aspects of economic and social life in different areas of the region of Hedjaz.*

Keywords: *Travel; Di Varthema;Source; History; Hedjaz.*

مقدّمة: أصبحت بلاد الحجاز منذ أواخر الفترة الإسلاميّة الوسيطة نقطة جذب واستقطاب لكثير من الرحّالة والمغامرين الأوروبيّين، الذين توافدوا عليها تباعا سواء كان ذلك في إطار مبادرات شخصيّة وفرديّة بدافع الرّغبة في الاستكشاف والاطّلاع على مهد الإسلام ومنشئه بما يحتويه من رموز دينيّة وشواهد تاريخيّة، أو كان ذلك في إطار مهمّات استطلاعيّة وجاسوسيّة كمبعوثين من لدن الدّوائر الدّينيّة والسّياسيّة الرّسميّة في أوروبّا وعلى رأسها الكنيسة في روما والمملكة البرتغاليّة القوّة الاستعماريّة النّاشئة، وذلك من أجل استجلاء ما يعتبره كثير من الأوروبيّين حقائق مبهمة وغامضة في أذهانهم عن الدّين الإسلامي، الذي باسمه غلبوا وتحت رايته فتحت بلادهم، أو أيضا لغرض التعرّف عن كثب على بلدان الشّرق وشعوبه من أجل السّيطرة على تجارته الغنيّة وثرواته الاقتصاديّة الضّخمة[1]. وقد شكّلت هذه الرّحلات الأوروبيّة إضافة مصدريّة هامّة لدراسة تاريخ الحجاز خلال هذه المرحلة المغفلة منه، خاصّة إذا علمنا أنّ تاريخ هذه المنطقة حتّى نهاية الفترة الإسلاميّة الوسيطة قد دخل دائرة النّسيان أو يكاد بعد وفاة المؤرّخ تقيّ الدين الفاسي سنة 832هـ/1482م[2].

كما أنّ ما دوّنته كتب التّاريخ التّقليديّة عن تاريخ بلاد الحرمين على امتداد عهوده المختلفة لا يتناول في الغالب إلاّ الجانب السّياسي، ولا يولي اهتماما لذكر الجوانب الحضاريّة الأخرى[3]. وأمام ندرة المصادر المهتمّة بتاريخ الحجاز خلال هذه المرحلة المفصليّة والمنسيّة منه كان لزاما على الباحث المتخصّص في تاريخ هذا الجزء من العالم الإسلامي أن ينشد ضالّته في ما دوّنه جمهور الرحّالة من أخبار بمن فيهم الرحّالة الأوروبيّون، من أمثال الرحّالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما، الذي يعدّ أوّل أوروبّي مسيحيّ الدّيانة ينجح مع مطلع القرن العاشر الهجري/ السّادس عشر الميلادي في التسلّل إلى أرض الحجاز حيث قضّى بين ربوعها طورا مثيرا من رحلته الطّويلة إلى الشّرق، مسجّلا كشاهد عيان على امتداد إقامته ببلاد الحرمين كثيرا من التّفاصيل المهمّة عن مختلف الأوضاع الحضاريّة السّائدة بهذه المنطقة[4]؛ فمن هو الرحّالة لو دو فيكو دي فارتيما؟ وماذا عن رحلته إلى الشّرق عامّة وإلى بلاد الحجاز بوجه خاصّ؟ ثمّ

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

كيف بدت بلاد الحرمين خلال المرحلة التّاريخيّة المشار إليها في ضوء ما دوّنه عنها هذا الرحّالة؟

أوّلا: دي فارتيما ورحلته: يذكر محقّق كتاب "رحلات دي فارتيما" الباحث الإنقليزي "جورج بيرسي بادجر"(Badger (G. P أنّ معظم ما نعرفه عن الرحّالة لودو فيكو دي فارتيما هو ما أورده هذا الرحّالة عن نفسه، والذي يستنتج منه أنّه مواطن إيطاليّ من أصل بولونيّ كان يقطن بمدينة روما[5]، في حين يرى البعض الآخر من الباحثين أنّ تصريح دي فارتيما بأنّه من أصل بولونيّ ليس إلاّ ادّعاء زائفا منه حين تنكّر في زيّ المماليك، وأراد أن يدخل إلى بلاد الحجاز المحرّمة على غير المسلمين، وحتّى لا ينكشف أمره لم يجد بدّا من ادّعاء الانتماء إلى بعض مناطق شرق أوروبّا مثل بولونيا المعروفة خلال ذلك العهد بانتشار الإسلام فيها[6]. ويرى فريق ثالث من الباحثين أنّ دي فارتيما ولد بمدينة بولونيا الإيطاليّة، وليس ببلاد بولونيا الواقعة في شرق أوروبّا، ومنها انتقل إلى مدينة البندقيّة التي كانت منطلق رحلته[7].

لكنّ على الرّغم من أهميّة رحلة دي فارتيما كأولى المدوّنات الأوروبيّة التي مكّنت الغرب من التعرّف عن كثب على عالم الشّرق؛ فإنّ صاحبها لم تكترث له كثيرا كتب التّاريخ والتّراجم الأوروبيّة بما فيها الإيطاليّة؛ فموسوعة التّراجم العالميّة القديمة والحديثة الصّادرة بباريس سنة 1827م لا تورد عن دي فارتيما سوى أنّه رحّالة إيطاليّ عاش خلال القرن السّادس عشر الميلادي[8]، أمّا المؤلّف الإيطالي "جياكينتو بلاسيدو زورلا" (Zurla (G. P فلم يشر إلى دي فارتيما ضمن أشهر الرحّالة الإيطاليّين الذين تحدّث عنهم شأن ماركو بولو وغيره[9]، ومن جهته لم يتعرّض المؤرّخ الإيطالي "جياكومو فانتوزي" (Fantuzzi (G لدي فارتيما إلاّ من خلال بعض الأسطر اليتيمة التي أشار فيها إلى ندرة المعلومات عنه، مشكّكا في الأثناء في هويّته الإيطاليّة وفي عودته إلى إيطاليا في ختام رحلته، مرجّحا أن يكون هذا الرحّالة ذا أصول برتغاليّة لأنّه كان يعمل لحساب ملك البرتغال الذي موّل رحلته، وقدّم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفروسيّة وضمّه أحيانا لجيوشه المحاربة[10]، ويشير دي فارتيما في رحلته إلى أنّ والده كان طبيبا وأنّه كان أبا وزوجا[11]، ويرجّح "بادجر" أن يكون هذا الرحّالة قد اشتغل

موظّفا عسكريّا نظرا لاهتمامه الكبير في رحلته بوصف الأسلحة والتجمّعات العسكريّة[12].

ودون الإفصاح عن الغايات التجسّسيّة والاستخباراتيّة المخفيّة من رحلته[13]، يحدّثنا دي فارتيما عن الدّوافع والأسباب التي حفّزته للانطلاق في سفره الطّويل إلى الشّرق بقوله: "ثمّة أناس كثيرون كرّسوا أنفسهم للبحث في هذا العالم بتقديم العون للبحوث والدّراسات والرّحلات وما له صلة وثيقة بكلّ هذا، محاولين بذلك تحقيق رغباتهم... وقد حظي هؤلاء، من كلّ من عرفت بالمديح الذي هم جديرون به، كما حقّقوا ذواتهم وشعروا بالرّضا عن أنفسهم. ولهذا السّبب فقد قرّرت أن أتقصّى بعض البقاع الصّغيرة من كرتنا الأرضيّة، شاعرا برغبة عارمة لتحقيق الغايات نفسها (أيّ مديح الآخرين وتحقيق ذاتي)... لذا فقد قرّرت أن أرى شخصيّا، وبعيني، وأن أحاول التأكّد من مواقع الأماكن ونوعيّات البشر، وأجناس الحيوان، وأن أرى بنفسي الثّمار المختلفة والأشجار العطريّة التي تنبت في مصر وسوريا وصحراء شبه الجزيرة العربيّة، وبلاد العرب السّعيدة وبلاد فارس والهند وأثيوبيا، واضعا في اعتباري أنّه ليس من رأى كمن سمع، وأنّ دليلا واحدا تقدّمه عين شاهدت يفوق في قيمته عشر روايات مسموعة"[14].

ويضيف دي فارتيما في المنحى ذاته قائلا: "وبعون اللّه، شرعت على نحو ما في تحقيق هدفي؛ فاستقصيت البلاد المختلفة والأمم الأجنبيّة، وتبيّن لي أنّني سأضيع حصاد جهدي إذا ما أخفيت في نفسي ما شاهدته وعاينته وجرّبته، وبدلا من هذا وجدت أنّه يتعيّن إيصال هذه المعلومات والخبرات إلى الدّارسين، لذا فقد فكّرت في نفسي في أن أقدّم وصفا صادقا جدّا لرحلتي هذه بقدر طاقاتي المتواضعة، لأنّي أظنّ أنّني بهذا أقدّم عملا أتمنّى أن يكون مقبولا من قرّائي، وبما أنّني قد حقّقت السّعادة والمسرّة برؤية ما هو جديد من أحوال النّاس وعاداتهم، وتعرّضت في سبيل ذلك لأخطار جسام وإرهاق لا يحتمل، فإنّ في إمكانية القرّاء أن يحقّقوا القدر نفسه من السّعادة، ويحصلوا على القدر نفسه من المعارف بدون أن يتعرّضوا لإرهاق أو خطر وذلك من خلال القراءة فحسب"[15]. كما يؤكّد دي فارتيما على رغبته الجامحة من خلال هذه الرّحلة في استكشاف وزيارة ما هو مجهول وغير مطروق من أصقاع

العالم، وفي هذا المعنى يورد قوله: "إنّ الرّغبة التي دفعت الآخرين لمشاهدة ممالك العالم المختلفة هي نفسها التي دفعتني للقيام برحلاتي هذه، ولمّا كانت البلدان مطروقة على نحو كبير بالنّسبة لشعبنا، فقد فكّرت في أنّه يجب عليّ أن أرى البلاد التي لم يرها أهل البندقيّة، أو لم يتردّدوا عليها كثيرا"[16].

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة 908هـ/أواخر شهر ديسمبر من سنة 1502م أبحر دي فارتيما من مدينة البندقيّة صحبة مجموعة من الرّفاق قاصدا مدينة الإسكندريّة المصريّة[17]، ويحدّثنا هذا الرحّالة عن بداية رحلته وعن شغفه وحماسه الكبيرين وهو ينطلق في مغامرته الجديدة بقوله: "نشرنا أشرعتنا في يوم ذي ريح مواتية، طالبين من اللّه المساعدة، وأسلمنا أنفسنا للبحر، وعندما وصلنا للإسكندريّة، إحدى مدن (موانئ) مصر، تطلّعت لكلّ جديد، وكنت كظمآن طال انتظاره للماء العذب"[18]. ومن الإسكندريّة يمرّ دي فارتيما سريعا في اتّجاه القاهرة التي اعتبرها أكثر سكّانا من مدينة روما، وفي ذلك يقول: "فمحيط القاهرة يساوي تقريبا محيط روما. إلاّ أنّها على أيّ حال تضمّ مساكن أكثر بكثير من روما كما أنّ سكّانها أكثر عددا"[19]. ومن القاهرة أبحر دي فارتيما صوب بلاد الشّام، فزار بيروت وطرابلس، ثمّ عرّج على اللاّذقيّة ومنها إلى حلب، التي وصفها بأنّها مدينة جميلة تعجّ بالتّجارات[20]. وبعد مرور سريع بحماه ومنين يصل دي فارتيما إلى مدينة دمشق، التي مكث فيها بعض الأشهر من أجل تعلّم اللّغة العربيّة[21]، مشيدا في الأثناء بجمال عمرانها ووفرة خيراتها[22]. وأثناء إقامته بمدينة دمشق تمكّن دي فارتيما من نسج علاقة صداقة مع أحد الضبّاط المماليك المسؤولين على تأمين قافلة الحجّ الشّامي، فضمّه إلى كتيبة الجند المكلّفين بحراسة القافلة مقابل أموال وأشياء أخرى كان قد دفعها له[23]. ومن دمشق شدّ دي فارتيما الرّحال صحبة قافلة الحجّ الشّامي في اتّجاه أرض الحجاز؛ فمرّ بالمدينة ومكّة وجدّة، ومنها إلى بلاد العرب الجنوبيّة التي دخلها بحرا عبر مدينة عدن حيث انكشف أمره كجاسوس يعمل لصالح ملك البرتغال، وتمّ سجنه[24].

وبعد تجربة عسيرة عاشها دي فارتيما ببلاد اليمن حالفه الحظّ كي يفرّ بجلده، ويتابع رحلته في اتّجاه سواحل القرن الإفريقي، مرورا بزيلع وجزيرة بربرة[25]، لينعطف بعد ذلك شرقا صوب بلاد فارس[26]، ومنها إلى أرض الهند ابتداء بمدينة "كمبي"

الواقعة بالقرب من نهر الهندوس والعامرة بكلّ شيء[27]، فجزيرة "سيلان" حيث تستخرج الجواهر[28]، ثمّ جزيرة "جاوا" حيث يتوفّر اللّبان الجاوي ذائع الصّيت، وحيث يؤكل لحم البشر[29]، وصولا إلى "كلكتا" المدينة الواسعة وذات البهارات الكثيرة[30]. ثمّ إنّ دي فارتيما ما لبث أن غادر "كلكتا" والتحق بالأسطول البرتغالي[31]، الذي كان يرسو بسواحل مدينة "كانونور"[32]. ويذكر دي فارتيما أنّه زوّد البرتغاليّين بمعلومات عسكريّة هامّة عن أعدائهم، وأنّه شارك في بعض المعارك البحريّة التي خاضها البرتغاليّون ضدّ المسلمين[33]، الذين وصفهم في أكثر من موضع من رحلته بـ"الكلاب"، وهو ما يعبر عن درجة الحقد والكراهيّة الكبيرة التي كان يكنّها قسم من الأوروبيّين المسيحيّين إزاء المسلمين خلال ذلك العهد[34]. كما يشير دي فارتيما في الأثناء إلى تولّيه خطّة وكيل تجاريّ بمدينة "كانونور" بإيعاز من نائب ملك البرتغال في الهند[35].

وفي الثّاني عشر من شهر شعبان لسنة 913هـ/السّادس عشر من شهر ديسمبر لسنة 1507م ركب دي فارتيما البحر عائدا إلى وطنه، وفي طريقه زار كثيرا من البلدان والجزر الواقعة على سواحل شرق إفريقيا مثل أثيوبيا والموزمبيق وجزيرة القمر وجزيرة سانت لورونزو أو مدغشقر[36]، ثمّ تابع طريقه جنوبا في اتّجاه رأس الرّجاء الصّالح ومنه عرّج شمالا قاصدا أوروبّا، التي وصل إليها في أواخر سنة 913هـ/مطلع سنة 1508م، بعد ما ينيف عن الخمس سنوات من الغياب[37]. ويذكر دي فارتيما أنّه دخل أوروبّا عبر لشبونة عاصمة البرتغال حيث التقى بملكها، وحدّثه عن مغامراته التي عاشها أثناء سفره الطّويل إلى الشّرق، ثمّ تابع بعد ذلك طريقه في اتّجاه مدينة روما مقرّ إقامته بإيطاليا، ليقضّي فيها بقيّة حياته ويتفرّغ لكتابة رحلته دون أن نعرف عنه شيئا آخر بعد ذلك التّاريخ[38]. ولمّا كانت سنة 915هـ/ 1510م صدرت باللّغة الإيطاليّة أوّل طبعة لـ"رحلات دي فارتيما"[39]، تلتها طبعة ثانية سنة 924هـ/1519م مع مقدّمة بقلم "إجنسيا فلتريا كولونا" دوقة توجلاياكوزو وكونتيسة ألبي ابنة الدّوق أوربينو[40]. وخلال سنة 916هـ/1511م ترجمت "رحلات دي فارتيما" إلى اللاّتينيّة[41]، ثمّ إلى الألمانيّة والإسبانيّة والفرنسيّة والهولنديّة مع منتصف القرن العاشر الهجري/السّادس عشر[42]، وإلى الإنقليزيّة في حدود سنة 985هـ/1577م[43]، وأخيرا إلى

العربيّة سنة 1994م على يد الباحث عبد الرّحمن عبد اللّه الشّيخ وهي التّرجمة التي نعتمدها في هذه الدّراسة[44].

ثانيا: وصف دروب الحجيج ومحطّاتها:

1- درب الحجّ الشّامي: حاز وصف دروب الحجيج ومحطّاتها نصيبا ذا بال من اهتمام دي فارتيما في سياق حديثه عن بلاد الحجاز، وبخاصّة منها درب الحجّ الشّامي المنطلق من دمشق في اتّجاه مدينة الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، وفي هذا المنحى يشير الرحّالة الإيطالي أنّه لمّا كان الحادي عشر من شهر شوّال لسنة 908هـ/ الثّامن من شهر أفريل لسنة 1503م انطلقت قافلة الحجّ الشّامي من دمشق في اتّجاه بلاد الحرمين، وأنّه انضمّ إلى هذه القافلة بعد أن كوّن علاقة صداقة عميقة مع قائدها المملوكي، الذي ألبسه لباس المماليك وأعطاه حصانا جيّدا نظير أموال وأشياء أخرى كان قد قدّمها له[45]. ويذكر دي فارتيما أنّ هذه القافلة تتكوّن من خمس وثلاثين ألف جمل وحوالي أربعين ألف شخص وستّين مملوكا يحرسونها، عشرون منهم يسيرون في المقدّمة وعشرون في الوسط وعشرون في المؤخّرة[46]. وبعد مسير ثلاثة أيّام تصل القافلة إلى المزيرب أولى محطّات هذا الطّريق، وفيها مكث الرّكب ثلاثة أيّام سجّل خلالها دي فارتيما بأسلوب لا يخلو من معاني الازدراء والتهكّم ما عاينه من حياة البدو سكّان هذه المنطقة، الذين كانوا لا يتورّعون عن مهاجمة قوافل الحجيج المارّة بأراضيهم ونهبها[47]. وعن أهل المزيرب يقول دي فارتيما: "وصدّقوني إن قلت أنّه يبدو لي أنّهم لا يعدون وإنّما يطيرون كالصّقور، فقد كنت معهم، ويجب أن تعلم أنّ غالبهم يمتطون الخيول غير مسرّجة، وهم بأثوابهم المعتادة، ولا يستثنى من ذلك إلاّ علّية القوم. ويتكوّن سلاح الواحد منهم من رمح (حربة) من خيزرانة هنديّة يبلغ طوله عشرة أذرع أو اثني عشر ذراعا، وفي آخرها قطعة من الحديد. وعندما يذهبون إلى القتال يتراصّون متجاورين كأنّهم ركائز يحاذي بعضها بعضا. وهؤلاء العرب (البدو) الذين أشرت لهم آنفا ذوو أحجام صغيرة ولونهم أصفر داكن، وأصواتهم كأصوات النّساء وشعورهم طويلة سوداء كثيفة. والحقّ أقول لكم إنّ أعدادهم هائلة لا يمكن إحصاؤها، وهم لا يكفّون عن الاقتتال فيما بينهم، وهؤلاء البدو يقطنون الجبل، وعندما يحين موعد مرور القوافل المتّجهة إلى مكّة المكرّمة ينزلون من الجبل ويكمنون

بقصد النّهب، وهم يحملون زوجاتهم وأطفالهم وكلّ أمتعتهم وخيامهم فوق ظهور الجمال، وخيامهم تشبه خيام العسكر وهي مصنوعة من الصّوف الأسود، ولها منظر كئيب"[48].

ويضيف دي فارتيما أنّه يوجد على رأس بدو المزيرب زعيم ذو سلطان ونفوذ ظاهرين هو شيخ أسرة الزّعبي العربيّة وفيه يقول: "وفي المزيرب شيخ أسرة الزّعبي العربيّة، ووفقا لما يقوله فإنّ للشّيخ الزّعبي إخوة ثلاثة وأربعة أولاد ذكور كما أنّه يمتلك 4000 حصان و10000 فرس وله هنا 30000 بعير لأنّ مراعيه تمتدّ مسير يومين، وعندما يفكّر هذا الشّيخ جدّيّا في شنّ الحرب ضدّ سلطان القاهرة وحاكم دمشق وحاكم القدس فإنّه- في بعض الأحيان، وفي موسم الحصاد، وعندما يظنّ هؤلاء الحكّام أنّه بعيد عنهم بعدا يبلغ مئات الأميال- يخطّط لشنّ غارة ذات صباح على مخازن الغلال في المزيرب حيث يكون الشّعير والغلال قد وضعت بإحكام في الغرار؛ فينهبه الشّيخ الزّعبي ورجاله ويولّون دون أن يلحق بهم أحد. وفي بعض الأحيان يظلّ الشّيخ يعدو بأفراسه طول النّهار وطوال اللّيل دون توقّف، وعندما يصل للجهة التي هو قاصدها في نهاية المطاف يقوم بتقديم حليب النّوق لأفراسه"[49]. وقد أكّد الرحّالة السّويسري "جون لويس بوركهارت" (1784-1817م)، الذي مرّ بهذه الطّريق في مطلع القرن الثّالث عشر الهجري/التّاسع عشر الميلادي، ما أورده دي فارتيما من أخبار عن المزيرب باعتبارها إحدى المحطّات الرّئيسيّة الهامّة الواقعة على طريق الحجّ الشّامي مع الإشارة إلى اختلاف طفيف، وهو أنّ قافلة الحجّ الشّامي كانت في زمنه تمكث عشرة أيّام بهذه المحطّة وليس ثلاثة أيّام كما كانت في زمن دي فارتيما، وذلك من أجل إتاحة الفرصة لتجمّع الحجيج القادمين من أماكن مختلفة، ومن أجل التزوّد بالمؤن ودفع الإتاوات لمختلف القبائل البدويّة، التي كانت القافلة تمرّ بأراضيها[50]، وهو ما يؤشّر بدوره على تزايد أهميّة هذه المحطّة بمرور الزّمن.

وفي السّابع عشر من شهر شوّال لسنة 908هـ/الرّابع عشر من شهر أفريل لسنة 1503م استأنفت قافلة الحجّ الشّامي مسيرها صوب بلاد الحجاز على امتداد عشرين ساعة[51]، ثمّ أصدر قائد القافلة أمرا بالتوقّف لغرض الاستراحة، فتوقّف الرّكب "أربعا وعشرين ساعة، وتمّ إنزال الأحمال من فوق ظهور الجمال وراح الجمع الجميع

يطعم ويطعم دوابّه"[52]. وعلى هذا النّحو قطعت القافلة طريقها في اتّجاه مكّة طيلة أربعين نهارا وأربعين ليلة، كابد خلالها النّاس ودوابّهم ألوانا كثيرة من عناء السّفر ومشاقّه، وفي هذا المعنى يحدّثنا دي فارتيما فيقول: "ويجب أن تعلم أنّهم يقدّمون للجمل ما يوازي خمسة أرغفة- فقط- من الشّعير غير المطبوخ، ولا يزيد حجم الرّغيف الواحد عن حجم الرمّانة، ثمّ يمتطون خيولهم ويستمرّون طوال اللّيل فطوال النّهار التّالي في سفر؛ فإذا علمنا أنّ هناك اثنتين وعشرين ساعة سابقات؛ فأضف إليهنّ أربعا وعشرين ساعة أخريات. وكانت القافلة تجد ماء طوال ثمانية أيّام، وذلك بحفر الأرض المتربة أو الرّمليّة أو من الآبار وأحواض المياه. وبعد انقضاء الأيّام الثّمانية تتوقّف القافلة ليوم أو يومين، حتّى تنوء الجمال بأحمالها بعد أن غدا مشيها وئيدا، إذ كان الجمل الواحد يحمل أحمالا توازي ما يحمله بغلان، وكان الرّكب يقدّمون لهذه الحيوانات البائسة (الجمال) ماء تشربه، مرّة واحدة، كلّ ثلاثة أيّام"[53].

وقد تحدّث دي فارتيما عبر أسلوب لا يخلو من المبالغة في ادّعاء البطولة عن المعارك التي خاضها إلى جانب رفاقه حرّاس القافلة من المماليك ضدّ جموع البدو، الذين كانوا يهاجمونهم بقوله: "وعندما كنّا نتوقّف عند مورد ماء، كان يتحتّم علينا دائما أن نخوض معركة مع أعداد كبيرة من العرب (البدو)، ولكنّهم لم يقتلوا منّا أكثر من رجل وامرأة، فهم رغم كثرتهم إلاّ أنّ انحطاط عقولهم جعلنا- مع أنّنا لا نزيد عن ستّين مملوكا- قادرين على مقاومة أربعين ألف بدويّ أو خمسين ألفا؛ فهؤلاء الوثنيّون (يقصد البدو) لا يجيدون استخدام السّلاح كالمماليك"[54]. ثمّ يصوّر لنا هذا الرحّالة بكثير من الإعجاب والانبهار المهارات القتاليّة الفائقة التي حازها هؤلاء المماليك بقوله: "ويجب أن تعلم أنّي كوّنت خبرة ممتازة عن هؤلاء المماليك خلال رحلتي معهم، فقد رأيت وآخرون المملوك يأخذ أحد عبيده ويضع الرمّانة فوق رأسه، ويجلسه (أيّ يجلس عبده) على بعد اثنتي عشرة خطوة أو خمس عشرة خطوة، ثمّ يصوّب سهمه نحو الرمّانة، ويطلقه من قوسه، فيصيبها (أيّ الرمّانة)، ومرّة أخرى، رأيت مملوكا يجري بالفرس عدوا، ثمّ فكّ سرجه ووضعه فوق رأسه ثمّ أعاده لموضعه ثمّ أعاده لموضعه فوق ظهر الفرس دون أن يسقط (لا السّرج ولا الفارس)، وكان كلّ هذا

يحدث والفرس منطلقة بسرعتها القصوى. وسروج خيل المماليك على شاكلة السّروج الأوروبيّة"[55].

ويذكر دي فارتيما أنّه بعد مسير اثني عشر يوما وصلت القافلة إلى منطقة وادي سدوم وعاموراء، واصفا إيّاها بأنّها "بقعة صحراء قاحلة، فالأرض موات لا تنبت ما يؤكل، والماء معدوم"[56]، مفسّرا هذا الجدب والقحط بالغضب الإلاهيّ، الذي حلّ بشعب سدوم وهم قوم لوط، الذين "كانوا يعيشون على المنّ وقد عاقبهم اللّه لأنّهم كفروا بأنعمه فحاق بهم عذابه، وترك اللّه ديارهم خرابا لتراها الأجيال"[57].

كما تحدّث دي فارتيما عمّا عاناه ركب الحجّ الشّامي من قحط وجدب وادي سدوم بقوله: "لقد عبرنا هذا الوادي الذي يبلغ طوله- على الأقلّ- عشرين ميلا، وهناك مات ثلاثة من الثّلاثة والثّلاثين شخصا العطاش، وقد دفن كثيرون في الرّمال، وتركت رؤوسهم دون أن تغطّى بالرّمال، لأنّهم يكونوا قد أسلموا الرّوح تماما"[58]. لكنّ محقّق رحلة دي فارتيما الباحث "بيرسي بادجر" يرجّح أن يكون خطّ سير هذا الرحّالة قد مرّ عبر البحر الميّت، سالكا طريق الحجّ المارّ حوالي 30 ميلا إلى الشّرق من وادي عربة الواقع جنوب مدينة البتراء[59]. كما يعتقد "بادجر" أنّ دي فارتيما قد خلط بين الممرّ الجبلي المجدب القاحل المارّ جنوب البتراء والمعروف بعقبة الشّامي وبين وادي سدوم وعاموراء، وذلك حين تحدّث عن عقبة الشّامي باعتبارها وادي سدوم وعاموراء، مستندا في رأيه إلى إشارة أوردها الرحّالة "بوركهارت" وصف فيها عقبة الشّامي بأنّها تقع على مسيرة اثني عشر يوما من دمشق وهي المسافة ذاتها التي تحدّث عنها دي فارتيما[60]. ويذكر الرحّالة "بوركهارت" أنّ هذا الطّريق تحفّ به صحراء قاحلة من جانبيه حتّى عقبة الشّامي، ثمّ تستمرّ السّلسلة الجبليّة مسافة تقرب عشر ساعات إلى الغرب من هذا الطّريق، الذي ينحدر بعد ذلك في هوّة سحيقة تستغرق القافلة نصف ساعة للوصول إلى قاعها، واصفا حجارة جبال هذه المنطقة بأنّها حجارة رمليّة حمراء[61]. ويعتقد "بادجر" أنّ دي فارتيما قد توهّم أو أنّ عاطفته الدّينيّة قد غلبته، فتهيّأ له أنّ هذا اللّون الأحمر الغالب على حجارة جبال هذا الطّريق والنّاتج عن التكوّن الجيولوجي للصّخور ما هو إلاّ دم يبدو كشمع أحمر نتيجة التّدمير الإلاهيّ لأرض سدوم مع أنّه كان بعيدا كلّ البعد عن هذه المنطقة[62].

ويذكر دي فارتيما أنّ القافلة بعد مغادرتها للمنطقة المسمّاة بوادي سدوم وعاموراء مرّت بجبل صغير به بئر، فعمّ الرّكب الفرح لعثورهم على الماء وحطّوا رحالهم للاستراحة[63]، لكنّ بحلول اليوم التّالي قدم جماعة من البدو يقدّر عددهم بـ24000 رجل وادّعوا أنّ الماء ماءهم، وأنّه يجب على القافلة أن تدفع لهم ثمن ما أخذته من الماء، وهو ما تمّ فعلا بعد جدال وقتال بين الفريقين[64]. ويحدّثنا دي فارتيما كعادته بكثير من التّباهي عن المواجهة، التي دارت بين أفراد الرّكب وجموع البدو، فيقول: "لقد كنّا جميعا ثلاثمائة مسلّح، وقد شرعنا فورا مع انبلاج الصّبح في القتال، فلم يستطع البدو أن يقتلوا من قافلتنا إلاّ رجلا وامرأة، أمّا نحن فقد قتلنا منهم 1600 شخص. ولا تندهش لهذا العدد الكبير الذي قتل من جانبهم، فذلك يرجع إلى أنّهم كانوا جميعا عراة ويركبون خيولا غير مسرّجة"[65]. لكنّ الباحث "بيرسي بادجر" لا يخفي تشكيكه في تقدير دي فارتيما لعدد البدو المقتولين خلال هذه المواجهة، والذي لا يخلو في نظره من مبالغة، رغم أنّ الجغرافيّ اليوناني "سترابون" Strabon قد تحدّث قديما عن معركة جمعت في حدود سنة 25 ق.م بين الجيش الرّوماني وعرب اليمن، وذكر أنّه لم يقتل خلال هذه المعركة من الرّومان إلاّ جنديّان أمّا العرب فقد قتل منهم عشرة آلاف رجل[66].

ثمّ لمّا كان اليوم الثّامن وصلت القافلة إلى جبل قدّر دي فارتيما محيطه ما بين عشرة واثني عشر ميلا "يقطنه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف يهوديّ، يروحون ويجيئون عراة، ويبلغ طول الواحد منهم خمسة أشبار أو ستّة أشبار وأصواتهم كأصوات النّساء، ويغلب عليهم السّواد، ولا يأكلون إلاّ لحم الغنم، وهم مختونون ويعترفون بأنّهم يهود، وإذا ما وقع أحد المسلمين بين أيديهم سلخوه حيّا"[67]. وقد شكّك كثير من الباحثين في صحّة الوصف الذي أورده دي فارتيما عن هؤلاء اليهود حين قدّر طول الواحد منهم ببعض الأشبار خاصّة أنّ أحدا من الرحّالة الآخرين الذين سلكوا هذا الطّريق، لم يشر إلى ما أشار إليه دي فارتيما[68]. وقد عزا محقّق الرّحلة "بيرسي بادجر" ذلك إلى سوء تقدير من دي فارتيما لبعد المسافة، التي كانت تفصله عن هؤلاء اليهود[69]، في حين أرجعه مترجم الرّحلة إلى العربيّة عبد الرّحمان عبد اللّه الشّيخ إلى أنّ دي فارتيما لم يلتق حقيقة بهؤلاء اليهود، واكتفى بما سمعه عنهم من

أعدائهم من بعض القبائل العربيّة أو أنّه مجرّد ادّعاء مغرض من دي فارتيما نفسه لغرض تشويه صورة اليهود، الذين كانوا خلال ذلك العهد محلّ ازدراء من لدن كثير من المسيحيّين في أوروبّا[70].

ويضيف دي فارتيما أنّ الرّكب وجدوا عند سفح هذا الجبل بركة بها ماء، فأخذوا منها ما يعادل حمل 16000 بعير، وكان اليهود غير راضين على هذا الصّنيع، لذلك "راحوا يحومون حول الجبل كالماعز البريّة إلاّ أنّهم لم ينزلوا للسّهل لأنّهم يعادون المسلمين حتّى الموت"[71]. ثمّ يصف دي فارتيما هذا الموضع بشيء من التّفصيل بقوله: "وكان يوجد عند سفح الجبل بالقرب من الماء الذي أشرت له في السّطور السّابقات ستّ أو ثماني شجيرات شائكات جميلات، وجدنا قمريّتين قد عشّشتا فيها، وقد بدت لنا كمعجزة في وسط هذا الجوّ القاحل، فقد سافرنا خمسة عشر نهارا وليلة لم نصادف خلالها طيرا واحدا أو حيوانا"[72]. ويحدّد دي فارتيما موقع هذا الجبل باعتباره يبعد عن المدينة مسير ثلاثة أيّام، وهو ما يتناسب وموقع المكان المسمّى بـ"الهَدْي" Hedye المذكور في خطّ سير رحلة "بوركهارت" باعتباره المحطّة الرّابعة والعشرين للقادمين من دمشق، والتي تبعد عن خيبر مسير أربع ساعات[73]. ويذكر دي فارتيما أنّ الرّكب قضّوا يوما بمحطّة "الهدي" ثمّ استأنفوا طريقهم، فلمّا أصبحوا على بعد أربعة أميال من مدينة الرّسول (صلى الله عليه وسلم) عثروا على بئر؛ فتوقّفوا "عندها يوما حيث استحمّ كلّ فرد من أفراد القافلة ووضع ثيابه، وارتدى ملابس الإحرام من قطع كتّان نظيفة قبل دخول مدينة النّبي".[74]

2- الطّريق من المدينة إلى مكّة: بعد أن استراحت القافلة أربعة أيّام بالمدينة أخذت تتجهّز لمواصلة الطّريق في اتّجاه مكّة، مستعينة في ذلك ببعض الأدلاّء المرشدين من البدو "الذين راحوا يتفحّصون البوصلات والخرائط الضّروريّة للسّفر" على حدّ قول دي فارتيما[75]. لكنّ محقّق الرّحلة "بيرسي بادجر" يستبعد أن يكون هؤلاء الأدلاّء البدو قد استعملوا خرائط أو بوصلات، والأرجح أنّهم كانوا يتفحّصون بوصلة صغيرة تسمّى "قبلة نامة" للتأكّد من الاتّجاه الصّحيح أثناء الصّلاة[76]. ويذكر دي فارتيما أنّ القافلة غادرت المدينة واتّجهت جنوبا قاصدة مكّة، وفي طريقها عثرت على بئر "رائعة كانت زاخرة بكميّات هائلة من المياه، ويقول المسلمون أنّ هذه البئر حفرها القدّيس مارك

St. Mark المبشّر كمعجزة من اللّه نظرا لحاجة هذه المنطقة الشّديدة للماء"[77]. لكنّ بالبحث في الذّاكرة العربيّة الإسلاميّة وفي كتب الأخبار والتّاريخ وغيرها لا نظفر بما يؤيّد الحقيقة التّاريخيّة للخبر الذي أورده دي فارتيما عن القدّيس "مارك" المذكور وعن البئر المنسوبة إليه[78]. ومن جهته يؤكّد الباحث "بادجر" أنّ إشارة دي فارتيما إلى القدّيس "مرقص" St. Mark صاحب الإنجيل الثّاني من أناجيل العهد الجديد، والذي يعني حواري المسيح غير معروفة على الإطلاق بالنّسبة إلى المسلمين في بلاد الحجاز[79]. كما يعتبر "بادجر" أنّه من الصّعب تحديد الطّريق التي سلكها دي فارتيما من المدينة إلى مكّة، لأنّه توجد أربعة طرق تربط بين هاتين المدينتين المقدّستين[80].

ويذكر دي فارتيما أنّ القافلة ما لبثت أن تركت بئر "القدّيس مرقص" المذكور، بعد أن استنفذت ما فيها من ماء، ثمّ تابعت طريقها في بحر من الرّمال حتّى بلغت جبلا يسكنه اليهود[81]. ويتحدّث دي فارتيما عن المشقّة والعناء اللّذين لاقاهما الرّكب بهذا الطّريق فيقول: "ويجب ألاّ أنسى أن أذكر لكم لقاءنا مع بحر الرّمال الذي غادرناه قبل أن نجد جبل اليهود؛ فقد ظللنا نسافر في بحر الرّمال هذا خمسة نهارات وخمس ليال، والآن عليك أن تفهم كلّ ما هو قريب. إنّه سهل عظيم مستو مليء بالرّمال البيضاء النّاعمة كالدّقيق، وإذا حدث لسوء الحظّ أنّ الرّياح تهبّ من الجنوب بينما أنت قادم من الشّمال متّجه صوب الجنوب، فإنّك ورفاقك قد تموتون، ورغم أنّ هذه الرّياح كانت تهبّ من الشّمال إلى الجنوب أيّ في نفس اتّجاه مسيرنا، إلاّ أنّ أحدنا لم يكن بمستطيع أن يرى رفيقه على بعد عشر خطوات. لقد كان الرّجال يركبون فوق جمالهم في صناديق خشبيّة خاصّة، حيث يأكلون وينامون داخلها، بينما كان أدلّتنا (مرشدونا) يسيرون ومعهم بوصلاتهم كما لو كنّا مبحرين في البحر. وقد مات هنا كثيرون من الظّمأ، ومات عدد أكبر لأنّهم عندما حفروا ووجدوا الماء، شربوا كثيرا جدّا حتّى ارتووا، وفي هذا المكان تصنع (تتكوّن) المومياوات وعندما تهبّ الرّياح تتجمّع هذه الرّمال في مواجهة جبل عظيم، هو أنف جبل سيناء... لقد عبرنا ذلك الجبل على حافّة خطر عظيم، وغادرنا البئر التي أشرت لها آنفا، وظللنا في سفر مستمرّ طوال عشرة أيّام، وقد خضنا مرّتين حربا مع 50000 بدويّ..."[82].

لكنّ حديث دي فارتيما عن وجود بحر من الرّمال وجبل لليهود بين المدينة ومكّة يزيد من صعوبة المهمّة في تحديد الطّريق الذي سلكه هذا الرحّالة خاصّة إذا جعلنا في الاعتبار الإشارة التي أوردها الرحّالة الإيرلندي "ريتشارد فرانسيس بيرتون" (1821-1890)، الذي زار بلاد الحجاز خلال النّصف الثّاني من القرن الثّالث عشر الهجري/التّاسع عشر الميلادي، وأكّد بشكل صريح أنّه لا يوجد بحر من الرّمال بين المدينة ومكّة[83]. ويعتقد الباحث "بادجر" أنّ الرحّالة دي فارتيما قد وقع في خلط، وأنّ حديثه عن بحر من الرّمال وجبل يسكنه اليهود قد سبق أن أورده أثناء مروره بمنطقة تقع على درب الحجّ الشّامي بين دمشق والمدينة، وبالتّحديد قبل وصوله إلى محطّة "الهدي" Hedye المذكورة آنفا[84]. وفي المقابل يؤكّد الرحّالة "بيرتون" صحّة ما أورده دي فارتيما عن وجود مومياوات ومحنّطات بالمنطقة الواقعة بين المدينة ومكّة، وفي ذلك يقول: "وقد أكّد لي طبيب عربي أنّه قام بكسر دجاجة، ثمّ ربطها ربطا محكما بقماشة تضمّ لحما مجفّفا لرجل، وقد أدّى هذا إلى أن أصبح الطّائر (الدّجاجة) يستطيع المشي في اليوم التّالي بساق سليمة"[85].

أمّا عن إشارة دي فارتيما إلى جبل سيناء في سياق حديثه عن الطّريق الرّابطة بين المدينة ومكّة، فيرجّح الرحّالة "بيرتون" أنّ المقصود بذلك هو جبل "وركان" Warkan الواقع على طريق البحر في اتّجاه مكّة[86]. أمّا الباحث "بيرسي بادجر" فيعتقد أنّ دي فارتيما كان يقصد تلك الجبال القريبة من منطقة الحجر، والتي تعتبر امتدادا لجبل سيناء رغم بعدها عنه[87]، مستندا في رأيه إلى ما أورده الرحّالة "بوركهارت" من حديث عن الآثار المنتشرة بتلك المنطقة، والذي جاء متّفقا وما ساقه دي فارتيما من وصف ذي طابع خياليّ للخرائب والمباني القديمة الموجودة هناك[88]. وقد جاء حديث "بوركهارت" عن آثار الحجر وخرائبها القديمة كالتّالي: "إنّ أكثر البقاع إثارة في طريق قافلة الحجّ من دمشق إلى المدينة هي الحجر أو مدائن صالح التي تبعد عن المدينة المنوّرة إلى الشّمال مسافة سبعة أيّام، وقد أشار القرآن الكريم في سورة الحجر إلى أنّ هذه البقعة كان يقطنها قوم ذوو بأس شديد هم ثمود دمّرت ديارهم لرفضهم الإذعان لتحذيرات النبيّ صالح. وتمتدّ هذه المنطقة (مدائن صالح) عدّة أميال، وتربتها خصبة وبها آبار عدّة وقنوات جارية. وإلى الغرب من هذا السّهل

الخصيب يوجد جبل غير ضخم يبعد حوالي أربعة أميال عن البقعة التي تتوقّف فيها قافلة الحجيج عادة، وفي هذا الجبل كهف كبير، وقد ذكر القرآن الكريم أنّ هلاك ثمود كان مصحوبا بصوت رعد وزمجرة شديدة قادمة من السّماء، وقد غزا محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم الحجر بعد قضائه على يهود خيبر بفترة وجيزة"[89].

ثالثا: المشاهدات العمرانيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة:

1- المشاهدات العمرانيّة: أولى الرحّالة دي فارتيما الأوضاع العمرانيّة ببلاد الحجاز اهتماما بارزا في رحلته، وهو ما بدا جليّا من خلال حرصه الدّؤوب على وصف مختلف المدن الحجازيّة التي زارها بما حوته من مباني ومعالم، وبخاصّة منها المعالم الدّينيّة ذات الصّلة الوثيقة بالدّين الإسلامي. وقد كانت مدينة الرّسول (صلى الله عليه وسلم) أولى حواضر الحجاز التي دخلها دي فارتيما قادما من بلاد الشّام، واصفا إيّاها بأنّها تضمّ حوالي ثلاثمائة منزل مشيّدة بالحجارة "ويحيطها سور من طين"[90]، وذلك خلافا لما أورده الرحّالة "بيرتون" الذي يؤكّد أنّ أسوار المدينة كانت في زمنه مبنيّة بالحجر[91]. ثمّ يحدّثنا الرحّالة الإيطالي عن المنطقة المحيطة بالمدينة، واصفا إيّاها بالجدب والقحط باستثناء وجود "حوالي خمسين أو ستّين نخلة في بستان بآخره قناة ماء تنحدر أربعا وعشرين درجة"[92]، مفسّرا ذلك القحط والجدب بـ"غضب اللّه"، الذي أصاب هذه المنطقة دون أن يخبرنا بشيء عن هذا الغضب الإلاهي المزعوم[93].

ومن محيط المدينة ينتقل دي فارتيما إلى مركزها ليحدّثنا عن أبرز معالمها ومقاماتها الدّينيّة وعلى رأسها مقام الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي حرص على زيارته ومعاينته بأدقّ تفاصيله، وهو ما مكّنه من تفنيد الخرافة الشّائعة في أوروبّا خلال ذلك العهد، والتي مفادها أنّ قبر الرّسول معلّق في الهواء في مكّة، وفي هذا المعنى جاء قوله: "فإنّ أولئك الذين يقولون بأنّ رفات محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم معلّق في الهواء بمدينة مكّة المكرّمة كذّابون يستحقّون التّوبيخ؛ فقد رأيت قبره (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنوّرة التي مكثت بها ثلاثة أيّام، وكنت حريصا على رؤية كلّ شيء فيها؛ ففي اليوم الأوّل من وصولنا للمدينة المنوّرة، وعند دخول المسجد النّبوي كنّا مجبرين على أن يصطحبنا بعض الأشخاص الذين أمسكوا بأيدينا، وقادونا إلى قبر الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم"[94]. ثمّ يحدّثنا دي فارتيما عن المسجد

النّبوي وقياساته، فيقول: "يبلغ طول مسجد النّبي (صلى الله عليه وسلم) مائة خطوة طولا، وثمانين خطوة عرضا، ويوجد بابان في كلّ جهة من جهاته الثّلاث أمّا جهته الرّابعة فلا أبواب فيها، وسقفه مقوّس وبه أكثر من 400 عمود من الأحجار الدّاكنة قد طليت جميعا باللّون الأبيض، وبه حوالي 300 مصباح تضاء من جانب واحد من الأقواس، وعند طول كلّ ضلع من أضلاعه خمس خطوات، وقد غطّي بالحرير، وعلى بعد خطوتين حاجز معدنيّ مشبّك جميل، يقف النّاس إزاءه لرؤية هذا البرج، وفي الجانب الأيسر من هذا الحاجز يوجد باب صغير يفضي إلى البرج، ويوجد في هذا البرج باب صغير آخر، وعند أحد البابين يوجد حوالي عشرين كتابا، وعند الجانب الآخر خمسة وعشرون كتابا، وتتناول هذه الكتب جميعا حياة محمّد(صلى الله عليه وسلم) ووصايا الدّين الإسلامي"[95]. لكنّ ما أورده دي فارتيما عن المسجد النّبوي من قياسات يبدو مختلفا وما أورده الرحّالة "بوركهارت" خلال النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر حين قدّر طول المسجد بـ165 خطوة وعرضه بـ130 خطوة[96]. أمّا الرحّالة "بيرتون" فقد وصف المسجد خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر بأنّه متوازي الأضلاع وطول كلّ ضلع 420 قدما وعرضه 340 قدما[97]. ويضيف دي فارتيما أنّ المسجد النّبوي يضمّ إلى جانب قبر الرّسول(صلى الله عليه وسلم) قبري أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب (رضي الله عنهما)[98]، لكنّه يجانب الصّواب حين يذكر أنّ المسجد يضمّ أيضا قبور عثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت الرّسول(صلى الله عليه وسلم)[99].

ومن المدينة ينتقل دي فارتيما للحديث عن مكّة التي دخلها من طرفها الشّمالي في الثّاني والعشرين من شهر ذي القعدة لسنة 908هـ/الثّامن عشر من شهر ماي لسنة 1503م[100]، واصفا إيّاها بأنّها "مدينة رائعة الجمال قد أحسن بناؤها، وتضمّ حوالي 6000 أسرة، ومنازلها جيّدة تماما كمنازلنا (في إيطاليا)، وتوجد منازل يساوي الواحد منها ثلاثة أو أربعة آلاف دوكات ولا يحيط بمكّة سور"[101]. ثمّ يحدّثنا الرحّالة الإيطالي عن الجبال المحيطة بمكّة، وعن أهمّيّتها كأسوار طبيعيّة تحيط بالبلد الحرام، وفي ذلك يقول: "وعلى بعد مكّة بربع ميل وجدنا جبلا يوجد به طريق، نحتته (شقّته) الأيدي البشريّة العاملة، وعندئذ انحدرنا إلى السّهل. وتمثّل الجبال أسوارا لمكّة

المكرّمة يوجد من خلالها أربعة مداخل...، ويوجد إلى النّاحية الجنوبيّة من مكّة جبلان يكاد أحدهما يلامس الآخر، وبينهما بوّابة تفضي إلى بوّابة مكّة، وإلى جهة مشرق الشّمس يوجد ممرّ جبلي آخر كأنّه واد يمرّ عبره الطّريق المؤدّي إلى الجبل الذي يحي فيه المسلمون تضحية إبراهيم وإسحاق، ويبعد هذا الجبل عن مكّة ما بين ثمانية وعشرة أميال، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل مرمى حجرين أو ثلاثة برمي اليد، وهذا الجبل ليس رخاميّا وإنّما من بعض أنواع الأحجار إلاّ أنّ لونه مختلف، وعلى قمّة هذا الجبل يوجد مسجد ذو ثلاثة أبواب، ويوجد عند سفح هذا الجبل مستودعات (خزّانات) ماء في الغاية من الجمال. إحدى هذه المستودعات (الخزّانات) للقافلة القادمة من القاهرة، والأخرى للقافلة القادمة من دمشق، وتجمع مياه هذه الخزّانات من الأمطار، وترد إلى هنا من مسافات بعيدة"[102].

ورغم أهميّة الوصف، الذي أورده دي فارتيما عن مدينة مكّة ومحيطها، إلاّ أنّه قد جانب الصّواب في بعض ما أورده عنها من أخبار، كحديثه عن إحياء المسلمين لذكرى تضحية إبراهيم وإسحاق بجبل عرفات، والحقيقة أنّ المسلمين يحيون ذكرى تضحية إبراهيم وإسماعيل بمشعر منى[103]، ثمّ يحدّثنا هذا الرحّالة عن القحط والجفاف اللّذين تعاني منهما مكّة ومنطقتها بقوله: "فالمنطقة المحيطة بها (مكّة) لا تنبت عشبا ولا شجرا ولا أيّ شيء آخر...، ويعاني أهل مكّة من نقص كبير في المياه؛ فإذا أراد واحد منهم أن يشرب كميّة الماء التي يرغبها فإنّ ذلك يكلّفه أكثر من أربعة كاترينات (عملة فضيّة كانت تضرب في مدينة بولونيا الإيطاليّة) في اليوم الواحد"[104]. وكما كان دأبه أثناء حديثه عن مدينة الرّسول(صلى الله عليه وسلم) يطلق دي فارتيما من جديد العنان لخياله الجامح وهواه المعادي للإسلام والمسلمين، ليفسّر لنا المناخ الجافّ وقلّة المياه في مكّة وما حولها بالغضب الإلاهي الذي ضرب هذه المنطقة[105].

ومن أطراف مكّة وشعابها يتّجه دي فارتيما نحو مركزها ليصف لنا المسجد الحرام بقوله: "ففي وسط مكّة يوجد معبد (مسجد) جميل جدّا يشبه الكولوزيوم في روما إلاّ أنّه غير مبني بالحجارة الضّخام، وإنّما من طوب أحمر وله تسعون بابا أو مائة باب، ذوات أقواس (عقود)"[106]. والتّعداد الذي أورده دي فارتيما عن أبواب المسجد

الحرام يختلف عمّا أورده من جاء بعده من الرحّالة الأوروبيّين ابتداء بالإنقليزي "جوزيف بيتس" الذي زار مكّة سنة 1680م، ووصف المسجد الحرام بأنّ له حوالي اثنين وأربعين بابا[107]، في حين ذكر الرحّالة الإسباني "علي باي العبّاسي"، الذي حضر موسم الحجّ لسنة 1807م أنّ للمسجد تسعة عشر بابا لها ثمانية وثلاثون عقدا[108]. أمّا الرحّالة "بوركهارت" الذي زار بلاد الحجاز خلال سنة 1814م، فقد قدّر أبواب المسجد الحرام بتسعة عشر بابا موزّعة على جهات المسجد بدون تناسق أو ترتيب، وكلّ باب يتكوّن من عقدين أو ثلاثة يفصل بينها حائط[109].

ثمّ يحدّثنا دي فارتيما عن الكعبة قائلا: "وفي باحة مكشوفة (غير مسقوفة) في وسط المعبد (المسجد) يوجد برج (الكعبة المشرّفة) تبلغ أطوال كلّ ضلع من أضلاعه الأربعة ستّ خطوات. وقد غطّي هذا المبنى (مبنى الكعبة) بالحرير الأسود (الكسوة) وباب من الفضّة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان عن طريقه يمكن الدّخول لهذا البرج (الكعبة المشرّفة)، ويوجد على كلا جانبي هذا الباب جرّة يقولون إنّها مليئة بالبلسم ويرى في عيد الميعاد، ويقولون إنّ هذا البلسم جزء من كنوز السّلطان، وعند كلّ ركن من أركان البرج (الكعبة) توجد حلقة كبيرة لجذب الأطراف الدّنيا من الكسوة أو توسعتها...، وعلى بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من الكعبة يوجد برج آخر يشبه إحدى مصلاّة كنائسنا أو كاتدرائيّاتنا ذو ثلاثة أبواب أو أربعة داخله بئر رائعة تبلغ سبع فازومات وماؤها مالح قليلا"[110]. وقبل مغادرته بلاد الحرمين يحدّثنا دي فارتيما عن مدينة جدّة آخر مدن الحجاز التي زارها هذا الرحّالة، وفيها يقول: "لا يحيط بجدّة سور، وإنّما هي محاطة بمنازل في غاية الجمال كالمعتاد في إيطاليا، لذا لن نغرق كثيرا في وصفها. إنّها مدينة مزدحمة جدّا لأنّ عددا كبيرا من المسلمين (عبّر عنهم فارتيما بالوثنيّين Pagan people) يأتون إليها، ولا يسمح بقدوم المسيحيّين أو اليهود لها. وعندما وصلت إلى هذه المدينة (جدّة) دخلت بسرعة مسجدا (استخدم فارتيما تعبير المعبد بدلا من المسجد)، وأقمت فيه أربعة عشر يوما...، ولا تنبت الأرض شيئا، وثمّة ندرة شديدة في المياه العذبة، ويلطم البحر جدران المنازل...، وتضمّ جدّة خمسمائة أسرة".[111]

2- المشاهدات الاقتصاديّة: لم تخل رحلة دي فارتيما من بعض الإشارات التّاريخيّة عن الأوضاع الاقتصاديّة السّائدة ببلاد الحجاز خلال العهد موضوع الدّراسة، وإن جاءت في أغلبها منصبّة على النّشاط التّجاري باعتباره أكثر الأنشطة الاقتصاديّة أهميّة، وبروزا بهذا الإقليم منذ عهود خلت؛ فأثناء زيارته لمدينة الرّسول (صلى الله عليه وسلم) أشار دي فارتيما إلى العلاقات التّجاريّة الوثيقة التي كانت تربط دار الهجرة بكثير من البلدان والأقاليم الأخرى عبر منفذ البحر الأحمر، الذي لا يبعد ساحله "عن المدينة المنوّرة أكثر من أربعة أيّام"[112]. وفي هذا المعنى يتنزّل قول الرحّالة الإيطالي: "ويتلقّى أهل المدينة المنوّرة مؤونتهم من بلاد العربيّة السّعيدة، ومن القاهرة وأثيوبيا عن طريق البحر"[113].

أمّا مكّة فعلاقاتها التّجاريّة تبدو أوسع وأكثر نشاطا اعتمادا على ميناء جدّة، الذي يبعد عن البلد الحرام مسافة أربعين ميلا[114]، وفي ذلك يقول دي فارتيما: "وسأحدّث لكم ذاكرا عن حياة أهل مكّة، فجانب كبير من مؤونتهم يأتي من القاهرة عبر البحر الأحمر؛ فثمّة ميناء يقال له جدّة Zida يبعد عن مكّة أربعين ميلا يستقبل هذه المؤن، كما ترد لمكّة كميّات كبيرة من المؤن من بلاد العرب السّعيدة، وكميّات كبيرة أخرى أيضا من أثيوبيا (سواحل إفريقيا الشّرقيّة المقصود بها). وقد وجدنا أعدادا كبيرة من الحجّاج في مكّة أتى بعضهم من أثيوبيا وبعضهم الآخر من الهند الكبرى India Major، وبعضهم الآخر من الهند الصّغرى India Minor، وآخرون من فارس، وطائفة من سوريا. والحقّ أقول لكم إنّني لم أر أبدا تجمّعا هائلا احتشد في مكان واحد، كما رأيت هنا (في مكّة) خلال العشرين يوما التي مكثتها في هذا البلد. لقد أتى بعض هؤلاء النّاس بغية التّجارة، وبعضهم بغية الحجّ طمعا في أن تغفر ذنوبهم..."[115]. ثمّ يحدّثنا دي فارتيما عن السّلع والبضائع المتنوّعة الواردة إلى مكّة من مختلف بلدان إفريقيا وآسيا، مشيرا في الأثناء إلى دور البلد الحرام كمحطّة إستراتيجيّة هامّة في تجارة العبور، وفي ذلك يقول: "وترد لمكّة من الهند الكبرى كميّات كبيرة من الجواهر، وكلّ أنواع البهارات، وإن كان جانب من البهارات يرد من أثيوبيا، ويرد جانب آخر من البهارات إلى مكّة من البنغال وكميّات كبيرة من الأقمشة القطنيّة

والحريريّة، فعبر مكّة تتمّ تجارة مرور كبيرة في المجوهرات والبهارات بأنواعها المختلفة، والقطن بكميّات كبيرة والشّمع والمواد العطريّة"[116].

وتبقى أبرز إشارة أوردها الرحّالة دي فارتيما لها علاقة بتجارة مكّة الخارجيّة حديثه عن التحوّل الخطير الذي حدث على مستوى المسالك الكبرى لتجارة الشّرق بعد اكتشاف طريق الرّجاء الصّالح مع نهاية القرن التّاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، والأثر السّلبي البيّن النّاجم عن ذلك التحوّل على عائدات مكّة وموقعها من هذه التّجارة. وفي هذا المعنى يتنزّل الحوار الذي دار بين دي فارتيما وبعض تجّار مكّة، الذين التقى بهم في البلد الحرام، وفي ذلك يقول الرحّالة الإيطالي: "فعندما كنت ذاهبا لاستبضاع بعض الأشياء لرئيس القافلة تعرّفت على أحد المسلمين...، ولأنّ قصدي أن أحصل على أكثر من هذا، فقد شرعت في استدراجه قائلا ما إذا كانت هذه هي مكّة المكرّمة ذات الصّيت الذّائع عبر العالم كلّه، فأين الجواهر؟ وأين البهارات؟ وأين مختلف أنواع البضائع التي قيل إنّها تتّخذ سبيلها إلى هذا المكان؟ لقد ألقيت عليه هذا السّؤال فقط عساه يخبرني لم لم تعد هذه البضائع والأشياء تصل إلى هنا كما جرت العادة قبل ذلك، ولم أشأ أن أسأله ما إذا كان ملك البرتغال هو السّبب؟ فقد كان الملك البرتغالي هو سيّد الخلجان الفارسيّة والعربيّة. وعندئذ بدأ يخبرني بالتّدريج عن سبب عدم وصول البضائع التي سبق أن أشرت إليها مثلما كانت تصل قبل ذلك. وعندما أخبرني أنّ الملك البرتغالي هو السّبب تظاهرت بالحزن العميق، وأرسلت فيضا من السّباب على هذا الملك البرتغالي، مخافة أن يكتشف سعادتي لنجاح المسيحيّين في إتمام هذه الرّحلة (حول رأس الرّجاء الصّالح)، وعندما وجد أنّني أظهرت عداء للمسيحيّين، أبدى نحوي مزيدا من الاحترام والاعتزاز، وراح يخبرني بكلّ شيء نقطة نقطة وبالتّفصيل"[117].

ثمّ ينتقل دي فارتيما للحديث عن تجارة مكّة الدّاخليّة وعن أسواقها المتخصّصة التي تعجّ بمختلف السّلع والبضائع، وفي هذا السّياق يورد الرحّالة الإيطالي قوله: "وعند دخولنا هذا المعبد (المسجد الحرام) انحدرنا عشر درجات أو اثني عشرة درجة، وحول هذا المدخل كان يجلس باعة يبيعون الجواهر ولا شيء غير الجواهر (سوق الذّهب). وعندما تنزل الدّرجات المذكورة تجد كلّ أنحاء هذا المسجد

وكلّ شيء حتّى الجدران مغطّاة بالذّهب. وتحت أقواس المسجد يجلس حوالي 4000 أو 5000 إنسان، رجالا ونساء، يبيعون مختلف أنواع المواد العطريّة غالبها مساحيق لحفظ الأبدان وإنعاشها، لأنّ الوثنيّين (يقصد المسلمين) يأتون إلى هنا من مختلف أنحاء العالم. والحقّ أقول لكم إنّه من الصّعب أن أصف لكم روعة الرّوائح التي شممتها في هذا المعبد (المسجد). إنّها تظهر كرائحة مشبعة بالمسك زاخرة بأكثر العطور إنعاشا وإبهاجا..."[118]. كما يشير دي فارتيما في المنحى ذاته إلى وجود حوانيت بمكّة تباع فيها "الحبوب والذّرة الرّفيعة والأرزّ وسائر الخضروات"[119].

ويُنهي الرحّالة الإيطالي مشاهداته الاقتصاديّة ببلاد الحجاز بالحديث عن الحركة التّجاريّة بمدينة جدّة وفيها يقول: "وكلّ أنواع الضّروريّات متوفّرة هنا، إلاّ أنّها تجلب من القاهرة وبلاد العرب السّعيدة (جنوب جزيرة العرب) ومن أماكن أخرى".[120]

3- المشاهدات الاجتماعيّة: حظي المجتمع الحجازي بمختلف شرائحه وعناصره بقدر كبير من اهتمام الرحّالةّ دي فارتيما الذي زوّدنا كشاهد عيان بكثير من الصّور الحيّة عن شتّى أشكال الحياة الاجتماعيّة بهذا الإقليم، مسهبا تارة وموجزا تارة أخرى في تسجيل ما أمكن تسجيله من الظّواهر والسّلوكيّات الاجتماعيّة، التي صادفته على امتداد السّبعة وثلاثين يوما التي قضّاها في ربوع هذا الجزء من العالم الإسلامي[121]. فقد حدّثنا هذا الرحّالة عن أسرة الأشراف حكّام الحجاز وعن حالة النّزاع والتّخاصم القائمة بين أفراد هذه الأسرة من أجل الانفراد بسدّة الحكم، وفي ذلك يقول: "ولمّا وصلنا مكّة كان ثمّة حرب ضروس بين أخ وأخيه، ذلك أنّ إخوة أربعة كانوا يتنازعون على شرافة (حكم) مكّة المكرّمة"[122]. أو قوله: "وحاكم مكّة سلطان (يقصد شريف) من سلالة محمّد، وهو أحد إخوة أربعة، وهو تابع للسّلطان الأكبر في القاهرة. وإخوة سلطان (شريف) مكّة الثّلاثة في حالة حرب دائمة معه (مع أخيهم شريف مكّة)"[123]، ويضيف دي فارتيما في المعنى ذاته: "وجدّة تتبع سلطان مصر، ويحكمها (جدّة) أخو سلطان (شريف) مكّة، وهو تابع للسّلطان الكبير في القاهرة"[124].

وأثناء إقامته بالبلد الحرام حدّثنا دي فارتيما عن فئة التجّار وعن تهرّب بعضهم من دفع الرّسوم المفروضة عليهم، كما كان حال صديقه تاجر البهارات المقيم في مكّة، وفيه يقول: "قلت له: صديقي، إنّني أتوسّل إليك، وأتمنّاك من النّبي أن تدلّني على

طريقة للهرب من القافلة...، ولذلك فقد أخفاني في منزله، وتركني مع زوجته، وتوسّل إليّ في أن أحثّ رئيس قافلتنا على أن يخرج من مكّة خمسة عشر بعيرا محمّلة بالبهارات، وذلك حتّى لا يدفع ثلاثين أشرفيّا للسّلطان كضريبة، فأجبته بأنّه إذا ما أخفاني في هذا المنزل فإنّني سأمكّنه من تحميل مائة بعير إذا كان لديه مثل هذا العدد لأنّ للمماليك هذا الامتياز. وعندما سمع منّي ذاك كان في غاية السّعادة...، وتركني التّاجر مع زوجته وفي منزله ورافق القافلة...، ولا أستطيع أن أعبّر عن الرقّة التي شملتني بها هذه السيّدة، وبخاصّة من ابنة أختها ذات الخمسة عشر ربيعا؛ فقد وعدتاني أنّني إذا بقيت هناك ولم أرحل، فستجعلان منّي رجلا ثريّا"[125].

ومن فئة التجّار الميسورين ينتقل دي فارتيما للحديث عن فئة الفقراء المعوزين الذين شاهدهم في أكثر من ناحية من بلاد الحجاز وبخاصّة 30000 منهم، الذين رآهم يوم النّحر بمكّة وفيهم يقول: "ويقدّم كلّ ناحر ما نحره إلى الفقراء حبّا للّه وتقرّبا إليه، إذ يوجد حوالي 30000 فقير هناك سرعان ما حفروا حفرة كبيرة جدّا، ووضعوا بها روث الجمال وأشعلوا فيه نيرانا صغيرة، وراحوا يشوون قطع لحم صغيرة ويأكلونها. ورأيي الذي أعتقد صدقه أنّ قدوم هؤلاء الفقراء إلى هذا المكان كان رغبة في التخلّص من الجوع أكثر من رغبتهم في غفران اللّه (سبحانه)، والدّليل على أنّ ذلك صحيح هو أنّه كان لدينا كميّة كبيرة من القثا الواردة من بلاد العرب السّعيدة، وقد أكلنا الكميّة كلّها خلا القشر، الذي شرعنا بعد ذلك في إلقائه خارج خيمتنا، فتجمّع حوالي أربعين أو خمسين من هؤلاء الفقراء أمام الخيمة، وراحوا يتكالبون على قشور القثاء الملأى بالرّمال. وبذا بدا لنا أنّهم قدموا لإسكات جوع بطونهم أكثر من قدومهم لمحو خطاياهم"[126].

وفي جدّة شاهد دي فارتيما ما يناهز 25000 فقيرا كانوا يرتادون المسجد الذي أقام به، وفي ذلك يقول: "وعندما وصلت إلى هذه المدينة (جدّة) دخلت بسرعة مسجدا كان يوجد به 25000 فقير على الأقلّ، وانزويت في أحد أركانه ومكثت فيه أربعة عشر يوما. وكنت أمكث طوال النّهار منطرحا فوق الأرض متدثّرا بثيابي، تصدر عنّي أنّات دائمة لأنّي كنت أعاني من آلام شديدة في معدتي وبدني. وقد سأل التجّار:

"من الذي يئنّ هكذا؟!" فأجابه الفقراء الذين كانوا إلى جواري: "إنّه مسلم فقير يحتضر"[127].

كما تعرّض دي فارتيما في رحلته لكثير من الظّواهر والسّلوكيّات الاجتماعيّة التي عاينها بمختلف أرجاء بلاد الحجاز، من ذلك حديثه عن بعض البدع والخدع المنتشرة في مدينة الرّسول (صلى الله عليه وسلم) لغرض كسب المال من زوّار مقام النّبي (صلى الله عليه وسلم)، وفي هذا المعنى يقول الرحّالة الإيطالي: "ويجب أن تفهم الخدعة التي يدلّسون بها على كلّ أفراد القافلة في أوّل ليلة تصل فيها لقبر الرّسول؛ فقائد قافلتنا أرسل لقيّم المسجد النّبوي وطلب منه أن يريه جسد النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم مقابل أن يعطيه 3000 أشرفي ذهبا، وذكر له أنّه قد أتى إلى هنا لينقذ روحه وليرى جسد النّبي، كما ذكر له أنّه مقطوع لا أب له ولا أمّ ولا أخوات ولا زوجة ولا أطفال، كما أنّه لم يأت إلى هنا لشراء جواهر أو بهارات. عندئذ أجابه قيّم المسجد النّبوي بخيلاء وغضب: "كيف يمكن لعينيك التي اقترفت الكثير من الذّنوب والمعاصي في هذه الدّنيا أن ترى الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم، الذي من أجله خلق اللّه السّماوات والأرض"، عندئذ أجاب قائد قافلتنا: "سيّدي، أنت قلت المليح" أيّ أنّك تقول الصّواب يا سيّدي، لكنّ اعمل معروفا ودعني أرى جسده الطّاهر، وبمجرّد أن أراه سأفقأ عيني حبّا له فأجاب قيّم المسجد: "لا يا سيّدي، إنّني سأقول لك الحقيقة. لقد رغب نبيّنا أن يموت هنا، ليقدّم لنا المثل لكنّه بمجرّد أن مات رفعته الملائكة إلى السّماء، وقد قال إنّ اتّحد مع اللّه (أو أنّ مساو للّه). فقال له قائد القافلة: "إذن أين ذهب عيسى بن مريم؟" فقال قيّم المسجد: "إنّه أسفل النّبي" أيّ تحت قدميه؛ فقال قائد القافلة: "بس بس... مش عاوز"، أيّ.. كفى.. كفى.. كفى.. لا أريد المزيد". وخرج علينا قائد القافلة قائلا: "انظروا كيف كنت أريد أن أبعثر ثلاثة آلاف أشرفي"[128].

ومن الخدع والخزعبلات الأخرى التي سجّلها دي فارتيما أثناء زيارته لمدينة الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، ما كان يأتيه البعض من حيل في سبيل الحصول على المال بإيهام الزوّار والحجيج الغرباء بصدور نور من حجرة النّبي (صلى الله عليه وسلم)، وفي ذلك يقول الرحّالة الإيطالي: "وفي اللّيل، حوالي السّاعة الثّالثة صباحا أتى إلى مخيّمنا حوالي عشرة أو اثني عشر شخصا من المسلمين كبار السنّ...، وقد بدأ

هؤلاء المسنّون في الصّياح"...، وقلنا لهؤلاء المسنّين: لم هذه الجلبة؟ وماذا تقولون؟...، وقد أجابنا هؤلاء المسنّون قائلين: "أنت ما تبصر النّور اللّي بيجي من بيت النّبي ورا من السّماء؟" أيّ ألم تر الضّياء المنبعث من ناحية بيت النّبي منبعثا من السّماء؟" فأجاب قائد القافلة: "أنا لم أر شيئا"، وراح القائد يسألنا واحدا واحدا إن كنّا قد رأينا شيئا، فأجبناه بالنّفي، فقال واحد من المسنّين: "أأنتم عبيد (مماليك)؟"؛ فأجاب القائد: "نعم"؛ فقال الرّجل المسنّ: "آه يا سادة، أنتم لا تستطيعون رؤية هذه الأمور الرّوحيّة؛ فأنتم لستم صادقين في عقيدتكم"؛ فأجاب القائد: "آه يا أغبياء...، آه يا مجانين...، أنا كنت ناوي أعطيكم ثلاثة آلاف أشرفي، لكنّ أنا واللّه ما أعطيكم... يا كلاب... يا أولاد الكلاب". ويجب أن تعرف أنّ هذا الضّوء ناتج عن نار أوقدوها ليجعلونا نعتقد أنّ نورا ينبعث من قبر محمّد (صلّى اللّه عليه وسلّم)، ولذا فقد أمر قائد القافلة بألاّ يدخل واحد منّا هذا المسجد (يقصد المسجد النّبوي)"[129].

ومن الخرافات والبدع التي عاينها دي فارتيما بمكّة تقديس كثير من النّاس لحمام الحرم لأنّه حسب زعمهم ينحدر من سلالة الحمامة التي تحدّثت إلى الرّسول محمّد (صلى الله عليه وسلم)، وفي هذا السّياق يحدّثنا الرحّالة الإيطالي فيقول: "ولقد وجدنا في طريق مكّة 15000 أو 20000 حمامة، يقولون إنّها من سلالة الحمامة التي تحدّثت إلى محمّد (صلى الله عليه وسلم)، وكانت في حقيقتها هي الرّوح القدس متقمّصة شكل حمامة، ويطير الحمام في كلّ أنحاء مكّة بين سعادة الجميع...، وأصحاب هذه الحوانيت لا يملكون قتل هذه الحمائم أو ذبحها أو الإمساك بها، وإذا حدث أن ضرب واحد منهم إحدى هذه الحمامات، فإنّ الرّعب يملأه خوفا من خراب البلد، ويجب أن تعلم أنّ هذا الحمام يلحق تلفا كبيرا داخل المسجد"[130].

ثمّ يحدّثنا دي فارتيما عن بعض الطّقوس والعادات الدّينيّة التي حضرها بمكّة أثناء موسم الحجّ، من ذلك حديثه عن طقس الطّواف بالكعبة وفي ذلك يقول: "وفي الرّابع والعشرين من شهر مايو يبدأ كلّ النّاس قبل طلوع النّهار في الطّواف حول الكعبة سبعة أشواط، وهم في هذه الأثناء يتمسّكون بأركانها ويقبّلونها (أيّ الكعبة)، وعلى بعد عشر خطوات أو اثني عشرة خطوة من الكعبة يوجد برج آخر يشبه إحدى مصلاّة كنائسنا أو كاتدرائيّاتنا ذو ثلاثة أبواب أو أربعة داخله بئر رائعة تبلغ سبع

فازومات صيفا، وماؤها مالح قليلا. وعند هذه البئر يقف ستّة رجال أو ثمانية لسحب المياه للنّاس. وعندما ينتهي النّاس من الطّواف سبعة أشواط حول الكعبة يأتون هذه البئر ويولّونها ظهورهم ويقولون: "بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، اللّهمّ اغفر لنا"، ويقوم أولئك الذين يسحبون الماء من البئر (بئر زمزم) بصبّ ثلاثة جرادل (صفائح) على كلّ شخص (من الحجّاج) من أعلى الرّأس إلى أخمص القدم، فيستحمّ الجميع بهذه الطّريقة حتّى الذين كانت ثيابهم من حرير. ويقولون إنّهم بهذه الوسيلة يتخلّصون من خطاياهم التي تبقى في هذا الموضع بعد الاستحمام..."[131].

ومن الحديث عن الطّواف بالكعبة ينتقل دي فارتيما للكلام عن ظاهرة الهدي وذبح الأضاحي يوم النّحر الموافق ليوم عيد الإضحى عند المسلمين، وفي ذلك يقول: "فسأذكر بإيجاز ما يراعيه المسلمون عند تقديم أضحياتهم؛ فما من رجل أو امرأة إلاّ وينحر رأسين أو ثلاثة على الأقلّ، بل إنّ بعضهم ينحر أربعة، وبعضهم الآن ينحر ستّة، حتّى أنّني أعتقد صادقا أنّه قد تمّ ذبح أكثر من 30000 رأس من الغنم في اليوم الأوّل، بعد أن ولّيت وجوهها صوب المشرق...، وفي اليوم الثّاني أقبل أحد علمائهم (القاضي) وهو يماثل أحد كهنتنا، وصعد إلى قمّة الجبل المشار إليه، وخطب في النّاس خطبة استغرقت حوالي السّاعة، وكان يصدر نوعا من النّواح، ويحثّ النّاس للبكاء على خطاياهم، وقال لهم بصوت جهوريّ: "آه.. إنّ إبراهيم هو حبيب الرّحمان وخليله"، ثمّ استطرد قائلا: "إنّ إسحاق قد اختاره اللّه سبحانه وقد دعا اللّه سبحانه لهداية شعب النّبي"، وبعد قوله هذا تعالى الهياج والصّراخ..."[132]. ومن جديد يخلط دي فارتيما بين إسماعيل وإسحاق ابني النّبي إبراهيم، وهو ما يوحي بأنّ الرحّالة الإيطالي يميل إلى تصديق الرّواية القائلة بأنّ الابن الذي فداه اللّه بذبح سمين هو إسحاق رغم تأكيد الرّواية الإسلاميّة على أنّ الذّبيح هو إسماعيل لأنّه هو من كان مع أبيه النّبي إبراهيم في مكّة، وقد شاركه في بناء البيت الحرام، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"[133].

ومن المشاهد الطّريفة واللاّفتة التي أشار إليها دي فارتيما أثناء إقامته بمكّة، ما يذكره أنّه رأى في جانب من جوانب المسجد الحرام زوجين من حيوان وحيد القرن، وفي ذلك يقول: "وفي موضع آخر من المسجد ثمّة مكان مسوّر يوجد به اثنان على قيد

الحياة من حيوان وحيد القرن. ويبدو أنّ كائنات عجيبة تائهة النّظر، وأنّهما كذلك يقينا. وسأحدّث لك من وصفهما ذكرا. أمّا أكبرهما فيبدو كمهر يبلغ من العمر ثلاثين شهرا. له في جبهته قرن طوله ثلاث براشيات. أمّا وحيد القرن الآخر فيشبه مهرا يبلغ من العمر عاما، ويبلغ طوله حوالي أربع قبضات. ويشبه لونهما لون الحصان الكميت الدّاكن أمّا رأساهما فتشبهان رأس الأيل، وليس لهذا الحيوان رقبة طويلة، وله بعض الشّعر المتفرّق القصير على أحد جانبيه، وأرجله نحيلة عجفاء كأرجل الماعز. وفي أقدامه (أظلافه) شقوق من نواحيها الأماميّة (مشقوق الظّلف) وهي تشبه أقدام الماعز، ويوجد بعض الشّعر في الجوانب الخلفيّة لسيقانه. وحقيقة الأمر أنّ هذا الحيوان المسخ (غريب الشّكل) يتحتّم أن يكون شرسا وانعزاليّا. وكان هذان الحيوانان وحيدا القرن قد أهديا إلى سلطان مكّة- باعتبارهما من أطرف ما في العالم وأجمله في أيّامنا هذه- من قبل ملك أثيوبيا"[134].

خاتمة: استأثرت بلاد الحجاز بقدر كبير من اهتمام الرحّالة دي فارتيما باعتبارها كانت إحدى وجهاته الرّئيسيّة في سياق رحلته الطّويلة التي قادته إلى أقاصي الشّرق مع مطلع القرن العاشر الهجري/السّادس عشر الميلادي. ويتنزّل إصرار الرحّالة الإيطالي على زيارة هذه المنطقة المقدّسة من العالم الإسلامي، وتجشّمه من أجل ذلك المخاطر الجمّة في إطار مهمّة استطلاعيّة وجاسوسيّة رسميّة لغرض التعرّف عن كثب على واقع الشّرق، وبخاصّة الجزء الإسلامي منه نظرا لأهمّيته الإستراتيجيّة والاقتصاديّة، وباعتباره العدوّ الدّيني والحضاري اللّدود الأوّل لأوروبّا في نظر كثير من الأوروبيّين، وهو ما عكسته جليّا مواقف دي فارتيما وانطباعاته العدائيّة والمتحاملة على الإسلام والمسلمين، لكنّ في المقابل لا بدّ من الإقرار بأنّ كلّ معاني الكراهيّة والعداء التي أظهرها هذا الرحّالة إزاء الدّين الإسلامي وأتباعه، لم تمنعه من أن يزوّدنا كشاهد عيان بالعديد من الصّور التّاريخيّة عن كثير من الأوضاع الحضاريّة السّائدة ببلاد الحرمين خلال المرحلة التّاريخيّة المشار إليها؛ فقد أمدّنا دي فارتيما بوصف لا يخلو أحيانا من الدقّة والتّفصيل لكثير من دروب الحجّ ومسالكه، مبديا في الأثناء شغفا كبيرا بالحديث عن الأحوال العمرانيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، التي عاينها بمختلف أرجاء بلاد الحجاز. وفي ظلّ ندرة المصنّفات التّاريخيّة التي تؤرّخ لهذه الفترة المفصليّة

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

والمغمورة من تاريخ بلاد الحرمين، يصبح التّعويل على رحلة دي فارتيما كمصدر من مصادر تاريخ مهد الإسلام خلال المرحلة التّاريخيّة موضوع الدّراسة أمرا لا مناص منه على الرّغم ممّا شاب مواقف هذا الرحّالة وانطباعاته من روح العدائيّة والتّحامل، وما تخلّل حديثه من مواطن الغلط والزّلل المقصودة منها وغير المقصودة.

الهوامش:

1- عبد الغنيّ إبراهيم (عبد العزيز)، **روايات غربيّة عن رحلات في شبه الجزيرة العربيّة** (1500-1840م)، دار السّاقي، بيروت-لبنان2013م.ج1صص68،16.الفارس(أسعد عيد)،"الرحّالة الغربيّون في شبه الجزيرة العربيّة غاياتهم وأهدافهم"، بحث مقدّم لندوة الرّحلات إلى شبه الجزيرة العربيّة المنعقدة بالرّياض 24-27 رجب 1421هـ/ 21-24 أكتوبر 2000م ومنشور ضمن **كتاب الرّحلات إلى شبه الجزيرة العربيّة**، دارة الملك عبد العزيز 1421هـ/ 2000م. ج1صص562،559. الشّيباني (محمّد عبد الهادي)،"أهداف الرحّالة الغربيّين وغاياتهم"، بحث مقدّم لندوة الرّحلات إلى شبه الجزيرة العربيّة المنعقدة بالرّياض 24-27 رجب 1421هـ/ 21-24 أكتوبر 2000م ومنشور ضمن **كتاب الرّحلات إلى شبه الجزيرة العربيّة**، دارة الملك عبد العزيز 1421هـ/ 2000م.ج1 ص513. الصيّاد(محمّد محمود)،"الرحّالة الأجانب في شبه الجزيرة العربيّة قبل القرن التّاسع عشر"، مجلّة **الدّارة**، السّنة الثالثة، العدد الثّالث، سنة 1397هـ/ 1977م.ص114. السّرياني(محمّد محمود) ومرزا(معراج نوّاب)،"مكّة المكرّمة في عيون غير المسلمين دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحّالة النّصارى عن العاصمة المقدّسة"، مجلّة **الجمعيّة الجغرافيّة الكويتيّة**، عدد 307، ذو القعدة 1426هـ/ ديسمبر 2005م. ص23. لويس (برنارد)، **اكتشاف المسلمين لأوروبّا**، ترجمة د. ماهر عبد القادر محمّد، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة 1998م. ص42. سوذرن (ريتشارد)، **صورة الإسلام في أوروبّا في القرون الوسطى**، ترجمة الدّكتور رضوان السيّد، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان 2006م. صص11-28. عطيّة بوسلامة (رفيعة)،"الحجاز واليمن من خلال رحلة فارتما"، بحث منشور **بالمجلّة التونسيّة للعلوم الاجتماعيّة**، السّنة 47، عدد 139، عدد خاصّ، 2010م.صص333-334.

2- البادي (عوض)، **الرحّالة الأوروبيّون في شمال الجزيرة العربيّة** (1845-1922م)، الدّار العربيّة للموسوعات، بيروت-لبنان1423هـ 2002م. ص9. العنقاوي (عبد الله عقيل)، "المؤرّخ تقيّ الدّين الفاسي وكتابة شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام"، بحث ملقي بمناسبة النّدوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربيّة ومنشور ضمن أبحاث **مصادر تاريخ الجزيرة العربيّة**، الرّياض 1399هـ/1979م. ص63. نوّاب (عواطف محمّد يوسف)، **الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السّابع والثّامن الهجريّين**، الرّياض 1417هـ/1996م. ص16. عبدولي (جمال)،"مكّة من خلال رحلة التجّيبي المسمّاة مستفاد الرّحلة والاغتراب"، بحث منشور **بالمجلّة التونسيّة للعلوم الاجتماعيّة**، السّنة 47، عدد 139، عدد خاصّ، 2010م. ص288.

3- نوّاب، **المرجع نفسه**، ص17.

4- دي فارتيما (لودوفيكو)، **رحلات فارتيما** (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق عبد الرّحمان عبد اللّه الشّيخ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة 1994م.صص9-10.العقيقي (نجيب)، **المستشرقون**، دار المعارف، مصر 1980م. ج3ص239.عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع السّابق**، ص73. الصيّاد، "الرحّالة الأجانب في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص 114. الشّيباني،"أهداف الرحّالة الغربيّين وغاياتهم"،**مقال سابق**، ص526. الفارس،"الرحّالة الغربيّون في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص561. السّرياني ومرزا،"مكّة المكرّمة في عيون غير المسلمين"، **مقال سابق**، ص30.
Ralli (A), *Christians at Mecca*, London 1909.p23.

5- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص10.
Di Varthema (Ludovico), *The travels of Ludovico Di Varthema in A.D. 1503 to 1508*, translated from the original italian edition of 1510 with a preface by John Winter Jones and edited with notes and an introduction by George Percy Badger, London 1863.p xvii.

6- عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع السّابق**، ص74. الفارس،"الرحّالة الغربيّون في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص.572

7- دي فارتيما، **المصدر السّابق**، ص10.

8- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص10.

Biographie Universelle, Ancienne et Moderne, Paris 1827. T. 47 p538. Di Varthema, op.cit, pxvii.

9- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص10.

Zurla (P), Di Marco Polo e degli altri Viaggiatori piu illustri, 2vols, Venezia 1818. Di Varthema, op.cit, pp xvii-xviii.

10- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص10، 214. الفارس،"الرحّالة الغربيّون في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص572.

Di Varthema, op.cit, p xviii.

11- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص190،187،10، 204.

12- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص10.

Di Varthema, op.cit, p xLiv.

13- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص9. عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع السّابق**، صص74-75. السّرياني ومرزا،"مكّة المكرّمة في عيون غير المسلمين"، **مقال سابق**، صص15-16.

14- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص17.

15- **المصدر نفسه**، ص17 .

16- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص23. السّرياني ومرزا،"مكّة المكرّمة في عيون غير المسلمين"، **مقال سابق**، ص.16

17- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص23. عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع السّابق**، صص73-74.

Di Varthema, *op.cit*, p xxv. Ralli, *op.cit*, p23. Agius (D), "Voyagers and Explorers of the Sixteenth Century: Cultural Terms in European and Arab Accounts", in *Travels to Arabia*, Riadh October 2000.vol.2 p12.

18- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص23.

19- **المصدر نفسه**، ص23.

20- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص25. عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع السّابق**، ص74.

21- دي فارتيما، **المصدر نفسه**،ص26. الصيّاد، "الرحّالة الأجانب في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص.114

22- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص26-29.---23- **المصدر نفسه**، ص35.---24- **المصدر نفسه**، ص.35

25- **المصدر نفسه**، صص81-84.---26- **المصدر نفسه**، صص87-95.---27- **المصدر نفسه**، ص99.

28- **المصدر نفسه**، ص159.---29- **المصدر نفسه**، صص185-.187

30- **المصدر نفسه**، صص188-.194

31- **المصدر نفسه**، صص194-195.

32- **المصدر نفسه**، ص195.

33- **المصدر نفسه**، صص195-196، 198-201.

34- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص 200،198. سوذرن، **صورة الإسلام في أوروبّا**، صص20، 55، 65.

35- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص 201-.202

36- **المصدر نفسه**، صص209-213.

37- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص213-214.

Di Varthema, *op.cit*, p cxii.

38- دي فارتيما،**المصدر نفسه**،ص214. الفارس،"الرحّالة الغربيّون في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص575.

39- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص13. الشّيباني،"أهداف الرحّالة الغربيّين وغاياتهم"،**مقال سابق**، ص527.

Agius, "Voyagers and Explorers of the Sixteenth Century…", *loc.cit*, p12.

40- عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع نفسه**، ص76.

41- عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع نفسه**، ص76.

Di Varthema, op.cit, p ii.

42- عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع نفسه**، ص76.

Ibid, p iii.

43- عبد الغنيّ إبراهيم، **المرجع نفسه**، ص76.---- 44- دي فارتيما،**المصدر نفسه**،ص4 وما بعدها.

45- دي فارتيما، **المصدر السّابق**، ص35.---- 46- **المصدر نفسه**، ص36.---- 47- **المصدر نفسه**، ص.36

48- **المصدر نفسه**، ص36. ---- 49- **المصدر نفسه**، صص35-36. ---- 50- **المصدر نفسه**، ص35.

Burckhardt (J. L), Travels in Syria and the Holy Land, London 1822.p242.

51- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص36-.35.---- 52- **المصدر نفسه**، ص37.---- 53- **المصدر نفسه**، ص37.

54- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص37. الفارس،"الرحّالة الغربيّون في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص573.

55- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص37-38. ---- 56- **المصدر نفسه**، ص38.---- 57- **المصدر نفسه**، ص38.

58- **المصدر نفسه**، صص38-39. ---- 59- **المصدر نفسه**، ص39.

Di Varthema, *op.cit*, p20.

60- **المصدر نفسه**، ص39.

Di Varthema, *op.cit*, p20. Burckhardt, *op. cit*, Appendix vi.

61- **المصدر نفسه**، ص39.

Di Varthema, *op.cit*, p20. Burckhardt, *op. cit*, Appendix vi.

62- **المصدر نفسه**، ص39.

Di Varthema, *op.cit*, p20.

63- **المصدر نفسه**، ص39. --- 64- **المصدر نفسه**، صص39-40.--- 65- **المصدر نفسه**، ص40.--- 66- **المصدر نفسه**، ص40.

Di Varthema, *op.cit*, p21.

67- **المصدر نفسه**، صص40-42. ---- 68- **المصدر نفسه**، ص40.

Di Varthema, *op.cit*, p24.

69- **المصدر نفسه**، ص40.

Di Varthema, *op.cit*, p24.

70- **المصدر نفسه**، ص41. ---71- **المصدر نفسه**، ص42. ---72- **المصدر نفسه**، ص42.--- 73- **المصدر نفسه**، ص42.

Burckhardt, op. cit, Appendix vi.

74- **المصدر نفسه**، ص42. ---75- **المصدر نفسه**، ص47. ---76- **المصدر نفسه**، ص47.

Di Varthema, *op.cit*, p32.

77- **المصدر نفسه**، ص47.---78- **المصدر نفسه**، ص47. ---79- **المصدر نفسه**، ص47.

Di Varthema, *op.cit*, p32.

80- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص47. ---81- **المصدر نفسه**، ص49. ---82- **المصدر نفسه**، صص49-50.

83- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص49.

Burton (R. F), *Personal narrative for a pilgrimage to Mecca and Medina*, Leipzig 1874.vol.II p358. Di Varthema, *op.cit*, p33.

84- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص49.

Di Varthema, *op.cit*, p24.

85- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص49.

Burton, *op.cit*, vol.II p361.

86- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص50.

Burton, *op.cit*, vol.II p361.

87- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص50.

Di Varthema, *op.cit*, p34.

88- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص50.

Di Varthema, *op.cit*, p34.

89- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص50.

Burckhardt, *op. cit*, Appendix vii. Di Varthema, *op.cit*, p34.

90- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص42. ---91- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص42.

Burton, *op.cit*, vol.II p100.

92- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، صص42-43.--93- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص42. الصيّاد، "الرحّالة الأجانب في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص115.---الفارس،"الرحّالة الغربيّون في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص574.

94- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص43.---95- **المصدر نفسه**، صص43-44.

96- **المصدر نفسه**، ص43. بيركهارت (جون لويس)، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربيّة**، ترجمة هتاف عبد اللّه، بيروت- لبنان 2005م.ص275.--97- **المصدر نفسه**، ص43.

Burton, *op.cit*, vol.II p23.

98- **المصدر نفسه**، ص42. --99- الصيّاد، "الرحّالة الأجانب في شبه الجزيرة العربيّة..."، **مقال سابق**، ص115.

100- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص51. --101- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص51. ---102- **المصدر نفسه**، صص51-52.

103- **المصدر نفسه**، ص52.--104- **المصدر نفسه**، ص51.--105- **المصدر نفسه**، ص.51

106- **المصدر نفسه**، ص.42

107- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص53. بيتس، جوزيف، **رحلة جوزيف بيتس** (الحاج يوسف) **إلى مصر ومكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة**، ترجمة ودراسة د. عبد الرّحمان عبد اللّه الشّيخ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة 1995م.ص.49

108- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص53.

Bey (Ali), *Travels of Ali Bey in Morocco, Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia, Syria and Turkey,* Philadelfia 1816.vol.II p102.

109- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص53. بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربيّة**، صص129-131.

110- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، صص54-55.---111- **المصدر نفسه**، صص61-62.--112- **المصدر نفسه**، ص.47

113- **المصدر نفسه**، ص47.--114- **المصدر نفسه**، صص.61،52

115- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، صص52-53. السيّد علي (السيّد)، **الحياة الاقتصاديّة في جدّة في عصر سلاطين المماليك** (648-923هـ/1250-1517م)، المطبعة التّجاريّة الحديثة، القاهرة 1991م.ص.61

116- **المصدر نفسه**، ص53.--117- **المصدر نفسه**، صص 59-60.--118- **المصدر نفسه**، صص 53-54.---119- **المصدر نفسه**، ص58.---120- **المصدر نفسه**، ص62.---121- **المصدر نفسه**، صص 43، 53، 61.---122- **المصدر نفسه**، ص.50

123- **المصدر نفسه**، ص51.----124- **المصدر نفسه**، ص61.----125- **المصدر نفسه**، صص60-61.---126- **المصدر نفسه**، ص56.

127- دي فارتيما،**المصدر نفسه**، ص61. السيّد علي، **الحياة الاقتصاديّة في جدّة في عصر سلاطين المماليك**، ص.24

128- **المصدر نفسه**، صص 44-46.---129- **المصدر نفسه**، صص 46-47.---130- **المصدر نفسه**، ص .58

131- **المصدر نفسه**، ص55.---132- **المصدر نفسه**، صص56-.57

133- **القرآن الكريم**، مصحف المدينة المنوّرة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، المدينة المنوّرة 1405هـ سورة البقرة الآية 127. دي فارتيما، **المصدر نفسه**، ص 57.---134- دي فارتيما، **المصدر نفسه**، صص58-59.